من أرشيف الجوال

٢٧/ ٥/ ١٤٣٧هـ

لا يختلف اثنان في الأثر الذي أحدثه هذا الجهاز الصغير، الذي كان أوّل ظهوره وسيلةَ اتصال، ثم أضحى جهازًا تعلّقت به أعمالُ الكثير من الناس.

ولما ابتليتُ باستقبال أسئلة الناس صوتيةً ومكتوبة؛ صار مخزونُ الذاكرة عندي وفي جهازي يحملُ عددًا كبيرًا من الرسائل التي تصل إلى حدّ التباين في مضمونها أو أسلوبها، بعضها طريف، وبعضها محزِن، وبعضها مشجّع، وبعضها ناصح ومذكّر، وبعضها واعظ، فاجتمع من ذلك رصيدٌ أحببتُ أن أشير إلى بعضه هنا؛ لأُشْرِكَ القراءَ الكرام معي في الدروس التي يمكن استفادتها من هذه الرسائل في التعامل مع الناس.

لقد تعلّمتُ -ولا أزال- أن مَنْ خالط الناسَ -ولو كانت خلطته (خلطةً آلية) أو (إلكترونية)- فلا بد أن يوطّن نفسَه على الصبر على الأذى، وهو شيء متيَقَّن لا متوقَّع، وهؤلاء المُؤْذونَ وإن كانوا يكدّرون صفو الإنسان -خاصة في بدايات التعامل معهم- إلا أنهم يعطونه دروسًا في الصبر، فإن لم يتعلم هذا الدرسَ فسينسحب من ميادين العطاء مبكّرًا،

وهنا يستذكر الإنسانُ ذلك الحديث المشهور، الذي يُقرِّر سنةً من السنن الإلهية في المخالطة: «**المؤمن الذي يخالط الناسَ، ويصبر على أذاهم، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم**»[1].

تتنوع صورُ هذا الأذى والرهق، ما بين عبارات نابية وخشنة جدًّا، بل قد تصل إلى اللعن والدعاء عليك بالنـــار! وما بين اتصالات متتابعة قد تصل إلى أكثر من ثلاثين اتصالًا في ســـاعة واحدة، وقد يصحبها رسائلُ تؤكد خطورةَ الســـؤال وأهميته، وأنه (ضروووووووورررررري)! -هكـــذا كتبها أحدُهم-، وإذا بالأمر لا يســـتحق ذلك قطعًا، بل يمكن تأجيلُه أيامًا عدة، وليس ساعات فقط، ولكن لا بد من الصبر.

ومن ذلك: الاتصال في ســـاعاتٍ متأخرة من الليل، وما يصحبُه من لومٍ وعتابٍ: لماذا لا ترد؟! وكأنه يُفترض من طالبِ العلم أو الشـــيخ أن يكون مستيقظًا أربعًا وعشرين ساعة ليَرُد!

ومن ذلك أن يتحول المتَّصِل -الذي هو في الأصل مســـتفتٍ يطلب الجواب- إلى مجادِلٍ ومجانفٍ لما ينبغي أن يكون عليه الســـائلُ من الأدَب مع مَنْ قصدَه بالســـؤال؛ فأتذكر مرةً أن رجلًا اتصل في الحج يَســـتفتي عن مســـألةِ دفع الأضحية لتُذبح في الخارج؟ فابتـــدأتُ جوابي بأنه إذا لم تكن عندك إلا هي فلا ينبغي إخراجُها، وإن كان لديك... فلم أستكمِل جوابي حتى قال لي: أنا ما ســـألتك حتى تقـــول لي: عندك ولا ما عندك! جاوبني: حلال، ولا حرام!

---

(١) رواه أحمد (رقم٥٠٢٢)، والترمذي (رقم٢٥٠٧)، وابن ماجه (رقم٤٠٣٢)، وحســـن ابن حجر إسناد ابن ماجه في الفتح(١٠/ ٥١٢).

أرشيف الرسائل والاتصالات يُسْـمِعك من السائلين ما يتصدّع له الفؤاد، ويَندى له الجبين، هذا بيتٌ يشـكو تسلّط عائلٍ جائرٍ، وآخر يئن من تورطِ كاسِـبهم بالمخدرات، وزوجةٌ تشكو ضربَ زوجِها وتعنيفه، وأُمّ تشـكو عقوقَ ابنها الشديد، في سلسـلة من المصائب والآلام التي تحرّك لسانَك بالشكر لله تعالى على نعمةِ العافية.

ومع هذا كلّه فأرشـيف الجوال يحمل في طياته الكثـيَر من الخير، بل هو الغالـب على الناس ولله الحمد، فكم أفادني شـخصيًّا في مراجعةِ حديث، أو تحريرِ مسألة، أو التثبّت من قول، وغيرها من الفوائد الجليلة!

لا تَسلْني عن مشاعري حينما أكونُ سببًا في تفريج كربةِ سائلٍ بجوابٍ يسيرٍ عن شيءٍ كان يظنه عظيمًا!

ولا تسلْني عن الفرح الذي يَغشى القلبَ حينما أسمع دعواتٍ صادقةً من سائلٍ شعَر أنك فتحتَ له صدرَك، واستمعتَ لكل أسئلتِه التي كانت تشكّل همًّا بالنسبة إليه.

من الرسـائل التي لا يزال صداها في ذهني: أنَّ أحدَهم اتصل يسأل عـن كيفية الخلاص من الكبائر التي يقع فيهـا؟ ونظرًا لخبرتي المحدودة بأسـئلة الناس فإننـي أطلب منهم تحديـدَ بعض هـذه الذنوب -وأنا لا أعرف السائلَ بالتأكيد- لأن بعضَهم يظن أنها كبيرةٌ، وليست كذلك، فقال لي بالحرف الواحد: «سـألني عمرُ، عن ذنوبي؛ فسالتْ عَبرتي حياءً منه، فكيف بتقرير الله لي؟!» فوالله لقد وعظني برسالته وهو لا يشعر! إي والله، فكيف بسؤال الله لنا عن ذنوبنا التي نستتر بها، ونحن يومئذ كما قال ربنا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].